

اتجاهات تعليم الجامعي في العصر الحديث

الدكتور عبدالوهاب البرلسي

وزير التعليم العالي
الجمهورية العربية المتحدة

وفي القرن الحادي عشر الميلادي (عام 1076م) بدأت في اوربا اولى جامعتين هما : سالرنو Salerno في جنوب ايطاليا ، التي اشتهرت بمدرستها الطبية ؛ وبوونيا Bologna في شمالها ، ثم تلاهما اشهر ثلاث جامعات انشئت في اوربا في العصور الوسطى ، وهي جامعات : باريس ، واكسفورد ، وكمبردج . وعاصرت اوربا بعد ذلك حقبتين من النهضة الجامعية : الاولى في عصر النهضة في القرن السادس عشر ، والثانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وفي كل تلك الازمنة ، كانت الجامعات تتميز بما يتميز به عصرها .. اجتماعيا ، وسياسيا ، فكانت الجامعات في القرون الوسطى تنمو في ظل الدين ، وكان رفقاء الدراسة يلتزمون . أولا - بالصحة والاخوة وطريقة الحياة التي ارتضوها لانفسهم . ثم تقلص التأثير الديني بعد ذلك وخامسة مع بدء عصر النهضة اثر اهتمام الافراد والهيئات بالتبرع لتمويل نشاط الجامعات ، واشتراكهم في ادارتها ، والاشرف على سياستها ، اصالح العلم ، والمعرفة . والمجتمع .

وفي السنوات التي تلت عصر النهضة ، ظهر عاملان قويان كان لهما تأثير واضح على نمو الجامعات : العامل الاول هو البحث العلمي الذي بدأ يتبلور كظاهرة

كان الانسان دائما - وما يزال - تواقا الى المعرفة ، وقد سعى الى هذا الهدف .. بكافة الوسائل ، بحثا ، ونقلا ، وسماحا .

ومن قديم الزمن .. كانت معابد الصين ، واكاديميات الاغريق ، ومدارس المصريين القدماء ، ثم المساجد والمكتبات في الاسلام ، ثم الجامعات بشكلها الحديث ، كانت كلها مراكز اشعاع ... للعلم ، والمعرفة .

ففي منتصف القرن الرابع الهجري - القرن العاشر الميلادي - قام الازهر الشريف واضطلع بمهمة الجامعة ، وما زال الى يومنا هذا وبعد الف عام قائما شامخا .. يمثل تطور القديم الى الحديث ، وينشر هام الدنيا والدين ، ويضيف الى المعرفة ، ويخرج اجيالا متعاقبة من العلماء والساسة . وكان الازهر في خدمة المجتمع الاسلامي ، قاطبة ، حج اليه الرافقون في العلم ، من كل حدب وصوب ، يخدم المجتمع بروح الاسلام ، روح العدل والمساواة ، فكانت الدراسة فيه حرة لمن استطاع الاستمرار فيها ... دون رسوم او نفقات ، بل كانت تيسر الاعاشة ايضا في كثير من الاحيان .

مميزة لهذا العصر ، وقد ادى ظهور الرواد الاوائل من الباحثين والمكتشفين في القرن السابع عشر ، وما تلاه ، الى انشاء الجمعيات والروابط العلمية ، وبخاصة في ميدان العلوم الاساسية ، وكان لهذه الجمعيات العلمية دورها الناجح في نمو التعليم الجامعي .

والعامل الثاني هو التحول الصناعي في مطلع القرن التاسع عشر ، حيث وضع للعالم اجمع ان الصناعة هي من اهم اسس تقدم المجتمع ، وان التقدم الصناعي يحتاج الى علماء وفنيين مهرة ، ويحتاج اعداد هائلة ، الى معاهد وكليات متخصصة في مجال ادارة الاعمال ، والاقتصاد .

وقد وضع ان البحث العلمي في عصرنا الحاضر . هو العامل المحرك للانتاج والصناعة ، ولا يزال الانتاج والصناعة هما دعامة نمو المجتمع .

وقد دخل البحث العلمي في هذا العصر آفاقا جديدة ورحبة ، فتحت الابواب لاحتمالات ضخمة في تقدم العلوم والمعرفة .

وكان طبيعيا ان صاحبت هذه القفزة الهائلة في ميادين البحث العلمي ، قفزة مماثلة في التعليم الجامعي والعالي ، الذي انتشر واسعا (وبخاصة في اعقاب الحرب العالمية الثانية ، وفي مناطق من العلم لم تكن تعرف التعليم الجامعي من قبل . واغلب تلك المناطق هي التي كانت تزوج تحت نير القهر الاستعماري ، في افريقيا واسيا ، فقد دلت احصاءات الامم المتحدة انه خلال الفترة من عام 1950 الى عام 1960 كان اعلى معدل للزيادة في عدد الطلاب الجامعيين هو في جامعات القارة الافريقية وكان اكبر عدد من الطلاب الجامعيين في العالم اجمع هو في القارة الاسيوية . وهكذا صحت شعوب القارتين لتعوض ما فات ولتمحو آثار التخلف الثقافي الذي اورثه اياها الاستعمار .

ومصر - هذا البلد العريق في الاصل والثقافة والدين - عريق ايضا في التعليم الجامعي . وقد اشرفنا الى اثر الازهر الشريف في الحياة الثقافية ، والفكرية . والسياسية .. قديما ، وحديثا .. والى اصالة العلاقات الانسانية - داخل الجامعة الازهرية بين الاستاذ والطالب اذ كانت علاقة احترام وتبجيل ، ودرس وتوجيه ، وحرية علمية مكفولة ، ورعاية اجتماعية وروحانية .

وحملت منار العلم والمعرفة - بجانب الازهر الشريف - جامعة القاهرة ، منذ اكثر من نصف قرن . فاعدت الرهيل الاول من العلماء والمفكرين الذين قادوا الحركة العلمية والفكرية ، في القرن الحالي ، وقادوا التعليم الجامعي - في عدد من الجامعات انشئت بعد ذلك في القاهرة والاسكندرية واسيوط - فكانوا امناه في حمل الرسالة ، وكانوا روادا مخلصين للعلم ، وللشباب ، وللمجتمع .

وتطورت جامعاتنا ، وتطور التعليم الجامعي في بلادنا . وارتبط ارتباطا وثيقا بالمجتمع ، يمد الافراد العلميين ، وينمي البحث العلمي ، وينشر العلم والمعرفة بين الالاف .. من خيرة الشباب ، ويتيح الفرصة المتكافئة لامداد هائلة ، من الطلاب ، والدارسين ، والباحثين .

وفي خلال عشر سنوات من عام 1957 الى عام 1967 - ازداد عدد طلاب الجامعات المصرية الاربعة : القاهرة والاسكندرية وعين شمس واسيوط من 73740 طالب الى 126 610 طالب اي بزيادة قدرها 71 % .

وضوعف الاتفاق على التعليم في هذه الجامعات في نفس هذه الفترة من 7.500.000 مليون جنيه الى 15.917.300 جنيه ، اي بزيادة قدرها 112 % (جدول رقم 1) .

جدول رقم - 1 -

بيان بتطور الجامعات وكلياتها في الجمهورية العربية المتحدة وتطور اعداد الطلاب ، واعداد الخريجين (**) والانفاق السنوي

| البيان | السنة | 1957 | 1962 | 1967 |
|----------------------------------|-------|-------|---------|---------|
| عدد الجامعات | | 4 | 4 | 4 |
| عدد الكليات الجامعية | | 33 | 32 | 46 |
| عدد الطلاب (مرحلة البكالوريوس) | | 73740 | 112 860 | 126 610 |
| عدد الخريجين | | 7880 | 12 230 | 19 867 |
| الانفاق السنوي (بالالف جنيه) | | 7500 | 14 266 | 15 917 |

(*) ماعدا جامعة الازهر .

سمات التعليم الجامعي في العصر الحديث

الآخري التي تيسر البحث والدرس ، على المستوى الذي يكفل حسن إعداد هذه الفئة الهامة من الاساتذة والباحثين .

وإذا كان تخطيط التعليم الجامعي لازما لكل دولة ، فهو الزم للدول النامية التي بدأت منذ عهد قريب سياسة التصنيع : بنية الارتفاع بمستوى الميشة فيها ، إذ ان على هذه الدول ان تضيق الشقة بينها وبين الدول المتقدمة . ولا يفت و عضد الدول النامية التكلفة الباهظة للاستثمارات اللازمة للتعليم الجامعي . إذ ان عائد تلك الاستثمارات - على الامد الطويل - يستحق هذا الإنفاق .

على ان وضع مثل هذه الخطة في مجال القوى العاملة - بطريقة مفصلة ومحكمة في نفس الوقت - ليس بالامر الهين . فهو يستلزم معرفة دقيقة بما يلزم كافة قطاعات الانتاج والخدمات من فئات القوى البشرية المختلفة ، على مدى معين ، آخذين في الاعتبار .. الوقت اللازم للطلاب الجديد ، حتى يصبح عاملا منتجا في قطاع من القطاعات .

وكثيرا ما نموزنا الاحصاءات الدقيقة وبخاصة في الدول النامية .. مما يشكل عقبة كبيرة في طريق التخطيط السليم .

تكافؤ الفرص في التعليم الجامعي

والاساس الثاني في تخطيط التعليم الجامعي ، هو تحقيق ديمقراطية هذا المستوى من التعليم ، وذلك بلانحة الفرصة المتكافئة لكل من تؤهلهم قدراتهم الذهنية ، لمواصلته والتفوق فيه فرصة لا تعدها قدرة مادية او طبقية .

ولتحقيق هذه الفرصة المتكافئة يلزم اتباع الوسائل التالية :

1 - وضع نظام عادل لاختيار الطلاب للدراسة الجامعية ، يضمن اختيار افضل العناصر من حيث قدرتهم على مواصلة هذه الدراسة والنجاح فيها ، وقد جربت وسائل عدة لاختيار الطلاب ، من بينها : اختبارات تربوية ونفسية مختلفة ، بهدف تحديد قدرات الطالب وملكانه واستمداده لنوع معين من الدراسة .. الا ان المشاهد في أغلب الاحوال أن انجح السبل لاختيار الطلاب وأكثرها تحقيقا للفرصة المتكافئة هي اقلها تعقيدا . ولعل أبسطها اختيار

لقد ادى التطور الاجتماعي والسياسي الكبير ، والتقدم العلمي الهائل ، الذي شهده العالم في القرن الحالي - الى ارساء اسس جديدة لتطوير التعليم الجامعي والعالي ، حتى يساير روح هذا العصر ومتطلباته .

وإضافة الى ذلك ، فانه رغم اننا نميش في عالم كبير ، الا ان الاتصال بين شعوبه لم يكن في يوم من الأيام ايسر ولا اسرع منه : اليوم . ولا سبيل أذن الى العزلة بين الشعوب ، بل هناك ضرورة للتعاون الوثيق بينها . وتبادل الخبرات في مجال التعليم . وهناك حاجة الى مساعدة القادر والمتقدم منها . للشعوب النامية المنعشة الى العلم والمعرفة .. مساندة علمية ، وانسانية . دون قيود . او تبعية .

وإضافة الى ذلك ، فانه رغم اننا نميش في عالم كبير ، الا ان الاتصال بين شعوبه لم يكن في يوم من الأيام ايسر ولا اسرع منه : اليوم . ولا سبيل أذن الى العزلة بين الشعوب ، بل هناك ضرورة للتعاون الوثيق بينها . وتبادل الخبرات في مجال التعليم . وهناك حاجة الى مساعدة القادر والمتقدم منها . للشعوب النامية المنعشة الى العلم والمعرفة .. مساندة علمية ، وانسانية . دون قيود . او تبعية .

ضرورة التخطيط للتعليم الجامعي :

تهدف خطة التعليم الى اعداد القوى البشرية . بفئاتها المختلفة ، التي تلزم للتنمية الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع ، ولتنفيذ مشروعات الخدمات المختلفة . وتشمل الخطة ايضا : انشاء المعاهد والجامعات التي تلزم لتحقيق هذه الاهداف ، اي ان خطة التنمية .. الاقتصادية والاجتماعية ، يجب ان يقابلها خطة تعليمية تعد لها ما تحتاج من القوى البشرية .

والخطة التعليمية ليست مقصورة على التعليم الجامعي والعالي ، بل يسبق ذلك ويرتبط به - خطة للتعليم العام ، يكون من بين اهدافها .. اعداد الشباب بالطريقة التي تسمح لمن تمكنه طاقاته الذهنية ، من اتمام مراحل التعليم الجامعي والعالي .

وتحتاج الجامعات لتحقيق هذه الخطة الى عدد مناسب من امضاء هيئة التدريس يلزم لاعدادهم - كما وكيفا - خطة مسبقة ، وامكانيات خاصة ، من حيث : اعداد المعامل والتجهيزات ، والمنشآت الجامعية

الطلاب طبقا لتفوقهم في دراستهم الثانوية ، مع اخذ رغبتهم وميولهم بعين الاعتبار .

2 - رفع القيود المادية التي تحد من تكافؤ الفرص ، واولها . . المصروفات الجامعية الباهظة . فانه مع الاعتراف بان ارتفاع مستوى المعيشة في كثير من الدول قد اتاح فرصا اكبر لطلابها لاتمام دراستهم الجامعية الا ان مجانية التعليم الجامعي التي حققتها دول كثيرة في السنوات الاخيرة كانت هي العامل الحقيقي الذي اعطى الفرصة المتكافئة لكل قادر على مواصلة هذا التعليم .

3 - تدبير المعنويات المادية ، ووسائل الرعاية الاجتماعية المختلفة للمتفوقين من الطلاب الذين تعجزهم احوالهم المادية عن مواصلة التعليم الجامعي ، رغم مجابته ، ومن اهم انواع تلك المعنويات: اتاحة فرص الاقامة والاعاشة في المدن الجامعية للطلاب المفترين ، فلا يزال الاغتراب يشكل عقبة كبيرة في طريق استكمال عدد من الشباب المتفوق تعليمهم الجامعي .

وتشمل المعنوية ايضا القروض الطويلة الاجل التي يسدها الطالب دون فوائد بعد تخرجه من الجامعة وبدء حياته العملية ، كما تشمل الجوائز المالية التي تمنح للمتفوقين من الطلاب وتساعدهم على استمرار تفوقهم ونجاحهم .

ويقدر بعض الخبراء ان هذه المعنويات - باشكلها المختلفة - يجب ان تتوافر لحوالي ثلث عدد الطلاب الدارسين في الجامعة .

4 - ويرتبط بالتعليم الجامعي انواع اخرى من التعليم العالي ، كانت تبيتها محل بحث ودراسة - خلال السنوات الماضية ، في كثير من بلاد العالم - وتقصد بها بعض المعاهد العليا التي يلتحق بها الطلاب بعد المرحلة الثانوية . وفي مقدمتها: المعاهد التكنولوجية ، ومعاهد المعلمين ، ومعاهد التمريض ، وما اليها ، هل تظل هذه المعاهد بعيدة عن التعليم الجامعي ، ونطاقه ، ام تظم الى الجامعات .

ان بقاءها خارج نطاق الجامعات ما هو الا تقليد جرت عليه الامور .

وقد استقر الرأي - في كثير من البلاد - على ان ضم تلك المعاهد الى الجامعات يوحد شكل التعليم العالي ، ويحقق ديمقراطية التعليم ، واتخذت انجلترا

هذا الموقف بضمها معاهد المعلمين الى الجامعة ، بعد الحرب العالمية الثانية ، وعادت الى تأكيد هذا المفهوم عندما درست لجنة روبن مشاكل التعليم العالي في بريطانيا ، وضمت ايضا الى الجامعات مجموعة من المعاهد التكنولوجية وهي ما عرفت بكليات التكنولوجيا المتقدمة ، واصبحت دبلوماتها درجات جامعية .

5 - ويجرنا الحديث عن ديمقراطية التعليم وضرورة اتاحة الفرصة المتكافئة فيه ، الى ان نذكر فئة من العاملين في قطاعات الانتاج والخدمات فاتتهم فرصة التعليم الجامعي والعالي ، لاسباب خارجة عن رادتهم ، وربما كان بينهم من هو اهل لهذا التعليم ، وفي نفس الوقت لا يستطيع ترك عمله للتفرغ للتعليم الجامعي ، وقد واجهت بلاد كثيرة - شرقية وغربية - هذه المشكلة . باسلوب واقعي ، فاتاحت الفرصة لهذه الفئة ، لاستكمال التعليم مع عدم تفرغ الطالب له .

وتدل احصاءات الامم المتحدة على ان عدد هؤلاء الطلاب يبلغ حوالي نصف عدد طلاب التعليم الجامعي في الاتحاد السوفياتي ، وفي انجلترا ، على حد سواء .

6 - ويوصي الخبراء ايضا بعدم تركيز الجامعات والكليات الجامعية في المواسم والمدن الكبرى ، بل يجب العمل على توزيعها جغرافيا على الاقاليم المختلفة ، اذ يتيح ذلك الفرصة لانتشار التعليم الجامعي ، والتغلب على عقبة الاغتراب والاماشة ، بل والازدحام في جامعة العاصمة .

وقد خطت مصر خطوات على هذا الطريق بانشاء جامعة الاسكندرية في عام 1942 ، ثم جامعة اسيوط في عام 1957 وفرعها في المنيا في عام 1966 وكثييتين للطب في كل من طنطا والمنصورة في عام 1962 نرجو ان تكون كل منهما نواة لجامعة اقليمية جديدة .

ضرورة التوسع في التعليم الجامعي

اشرنا فيما سبق الى ان ظهور هذا العدد الكبير من الدول المستقلة في الحقبة التي تلت الحرب العالمية الثانية ، وحاجة هذه الدول الى التعليم ، بعد طول حرمان ، قد ادى الى التوسع في التعليم الجامعي والعالي ، الا ان هناك عوامل اخرى هامة ساهمت - ولا تزال - في اتساع نطاق هذا النوع من التعليم .

ومن هذه العوامل النمو السكاني العالمي ، وضغط هذا النمو على التعليم ، واستجابة المسؤولين لحاجة الشعوب وحققها في طلب العلم . وقد صاحب هذا النمو

السكاني - بل وسبقه خلال النصف من القرن الحالي -
توسع كبير في التعليم الثانوي ، أدى بعدد كبير من
الشباب الى ابواب الجامعات .

ومن اسباب التوسع ايضا الأخذ بمبدأ تكافؤ
الفرص الذي أشرنا اليه ، ومجانبة التعليم الثانوي
في كثير من البلدان ، ثم مجانية التعليم الجامعي في عدد
كبير منها . وبالإضافة الى ذلك فان تعليم البنات لم
يكن منتشرًا بهذا الاتساع قبل خمسين عاما ، أما الآن
فللطالبة فرصة متكافئة كالتالبات تماما ادت بها الى
التعليم الجامعي بأعداد متزايدة فاقت أعداد الطلاب في
بعض الدراسات الجامعية .

ولا تقتصر العوامل التي ادت الى التوسع في
التعليم الجامعي ، على رغبة هذا العدد المتزايد من
الشباب في اتمام تعليمهم ، بل هناك عوامل أخرى
مرتبطة بنمو المجتمع نفسه ، ونمو الصناعات فيه ،
وحاجة كل ذلك الى أنواع من التخصصات الجديدة في
كافة نواحي العلوم والتكنولوجيا لصالح الإنتاج والتنمية
وحاجة المجتمع ايضا الى خدمات أكثر حجما وتوسعا
في ميادين الصحة والتعليم والرعاية الاجتماعية ،
وضرورة امداد القوى البشرية اللازمة لمقابلة تلك
الالتزامات .

كل هذه العوامل تؤلف قوى مؤثرة بشكل فعال
في نمو التعليم الجامعي ، وتحتم التوسع فيه ، وبخاصة
في البلاد التي تخطط لاحتياجاتها من مختلف فئات
الفنيين .

الى تقدم العلوم والتكنولوجيا على التعليم الجامعي

وقد احدث التقدم الهائل في العلوم والتكنولوجيا
في السنوات الاخيرة تغيرا جذريا في الحياة الفكرية في
الجامعات ، وادى الى انشاء أنواع جديدة من معاهد
البحث العلمي ، ومعاهد التعليم ، لم تكن موجودة
من قبل .

وقد ادى هذا التقدم ايضا الى استخدام أجهزة
علمية .. معقدة .. غالبية الثمن ، مما أدى - بدوره -
الى ارتفاع نفقات البحث العلمي ، والتعليم الجامعي .

واحدث ذلك كله تغيرات واضحة في التعليم
الجامعي والعالي ، فقد ادى ظهور تخصصات جديدة
- وفتتها الى تخصصات ادق - الى زيادة عدد الطلاب

الدارسين في هذه المجالات . سنة بعد أخرى . وارتفاع
نسبة هؤلاء الطلاب الى عدد الطلاب الدارسين للعلوم
التقليدية والعلوم الانسانية .

وقد ادى هذا التطور - ايضا - الى زيادة عدد
المعاهد التكنولوجية ، سواء داخل الجامعات او خارجها ،
لتلاحق تدريب الاخصائيين في هذه المجالات الحديثة .

وكان على الجامعات في ظل هذا التطور . ان
توازن بين حجم التعليم . وحجم البحث العلمي بها ؛
فحدث نمو هائل في برامج البحوث العلمية ، بل صبغ
التعليم الجامعي نفسه بروح البحث العلمي . واصبح
هدف هذا التعليم .. هو أعداد الاخصائيين القادرين
على التطور مع التطور السريع للعلوم .

وكان تأثير تقدم البحث العلمي واضحا على نمو
الدراسات العليا بالجامعات ، واصبح لزاما ان تتعاون
الجامعات تعاونًا وثيقًا مع مراكز البحث المتخصصة .

واصبح ضروريا وضع سياسة للبحث العلمي ..
تضمن تنسيق برامج البحوث وعدم تكرارها ، وحسن
استغلال التمويل المتاح لها .

واصبح لزاما - كذلك - التنسيق بين البحوث
العلمية البحتة ، والبحوث التطبيقية اللازمة لتطوير
الصناعة والإنتاج ، لصالح المجتمع .

وقد ادى تقدم العلوم التكنولوجية ايضا الى
ادخال وسائل تعليمية حديثة بسرت نشر التعليم
الجامعي ، ونقل المعلومات في سهولة على نطاق أوسع ،
ويسرت ايضا تسجيل نتائج البحوث العلمية وتبويب
برامجها . ومن هذه الوسائل الحديثة النافعة : ادخال
التليفزيون في التعليم ، واستعمال العقول الالكترونية
في البحث العلمي ، والاستعانة بمعامل اللغات ، ومراكز
التوثيق العلمي وما الى ذلك من ميسرات التعليم
والبحث .

الا ان الاهتمام الزائد بالعلوم التطبيقية ، وزيادة
الاقبال عليها ، ينبغي الا يصرفنا عن الاهتمام بالعلوم
الانسانية - كما سبق ان اسلفنا - فان هذه العلوم هي
التي تعطي للطالب الجامعي الفرصة لتفهم تاريخ ما
يدرسه من علوم - وتفهم مشاكل المجتمع واحتياجاته ،
وان النهج الصحيح للعلاقة بين العلوم الانسانية والعلوم
التطبيقية من شأنه ان يهدم الحواجز بين طرفي
المعرفة .

بعض النواحي العلمية في التعليم الجامعي

نمو المعرفة :

الجامعة هي مجتمع الاساتذة والطلاب ، وهي مركز للعلم والمعرفة . . لم تتغير هذه الرسالة منذ القدم ، رغم تغير تكوين الجامعات وتطور اسلوب عملها .

ورغم المؤثرات التي كانت تصبغ التعليم الجامعي في مختلف العصور ، فقد كانت الجامعات - ولا تزال - تعطي اهتمامها الاول للاستزادة من المعرفة ونشرها على اوسع نطاق ، اذ يتميز الفكر الجامعي باهتمامه على البحث والملاحظة والتجربة ، ثم تفسير مشاهداته ليصل الى المعرفة . .

والمجتمع الناجع للاساتذة والطلاب ، تنمو فيه العلاقة الانسانية بين الاستاذ والطالب بحيث يحرم الاستاذ على رعاية طلابه وتوجيههم ليكونوا مواطنين صالحين اولاً ، ومتخصصين مؤهلين ثانياً . كل فيما هيء له ليؤدي رسالته في خدمة المجتمع وخدمة الانسانية . مواطن صالح على درجة من الثقافة العامة تتيح له اكتشاف طريقة في الحياة وتمكنه من الاستزادة من العلم ، وعلى درجة من الدراية الفنية في نوع من فروع العلوم التطبيقية تمكنه من خدمة المجتمع الذي يعيشر فيه . .

ويحتاج هذا الاعداد الى دراسات اساسية موحدة ، يقضي فيها الطالب الجامعي الجديد - مهما يكن تخصصه المستقبل - عاماً او بعض عام ، يدرس فيها منهجاً مناسباً من العلوم الانسانية ، يتيح لطلاب العلم في الجامعة اساساً مشتركاً من المعرفة .

وفي بعض الجامعات تتألف هذه الدراسة من علوم التاريخ ، والاجتماع ، والفلسفة والدين ، تتكفل بتدريسها اقسام العلوم الانسانية بالجامعة ، وبعث يكون لدى الطالب في نهاية هذه المرحلة الاعدادية او مرحلة الاساس كما سميت في بعض الجامعات الحديثة فهم واضح للاسلوب العلمي في التفكير ، وفكرة صحيحة من نشأة العلوم وتطورها ، ودراسة علمية لتركيب المجتمع واحتياجاته ، وعلاقة كل ذلك بما يدرسه الطالب من علوم تطبيقية .

وتهتم الجامعات - خلال هذه المرحلة - بدراسة تاريخ العلوم ، ودراسة ما اسهم به السلف من جهود في ميادين العلم والمعرفة ، حتى يكون ذلك حافظاً قومياً

وقوياً على البحث والدراسة ، ومثلاً يحتذى في تنمية العلم والمعرفة .

ولا شك ان رسالة الجامعات . في عالمنا الحديث لم تعد مقصورة على الاهداف التقليدية من حيث البحث من المعرفة وتاصيلها ونشرها . يوم ان كانت الجامعات مقصورة على الآداب والعلوم البحتة . وانما امتدت تلك الرسالة حتى كادت تشمل كل نواحي الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، والسياسية والعلمية ، والتكنولوجية وقد اصبح من الطبيعي ، في عالمنا الحديث ، ان تتقابل الجامعات مع المجتمع . لبحث حاجاته ، والاستجابة لمتطلباته .

الجامعة والبحث العلمي

البحث العلمي دعامة من اهم دعائم التعليم الجامعي ، واستاذ الجامعة من خصائصه المميزة انه باحث يجمع مع ممارسته للتعليم نشاطه في البحث العلمي . بل ان الجامعات تشترط في الاستاذ ان يكون باحثاً بصفة اساسية . قبل اختبار قدرته على القاء المحاضرات والدروس .

وتهتم بعض الجامعات ببث روح البحث العلمي في الطالب ، وهو لا يزال في مرحلة الدراسة لدرجة البكالوريوس ، ففي روسيا - مثلاً - يشجع الطلاب في هذه المرحلة على الاشتراك فيما يجريه اساتذتهم من بحوث ، وربما وصل عدد الطلاب المشاركين في البحوث الى عشر مجموع طلاب الفرقة .

الا ان الاستاذ يحتاج الى مزيد من الوقت للتفرغ للبحث العلمي ، وبخاصة في هذا العصر الذي ازداد فيه عدد الطلاب في الجامعات زيادة كبيرة ، والوقت هذه الزيادة عبئاً مضافاً على قلة من اعضاء هيئة التدريس .

ولجات بعض الجامعات - ابقاء على نشاط الاستاذ في مجال البحث العلمي - الى انشاء مراكز متخصصة للبحوث ، يعمل فيها الاساتذة في اوقات محددة ، غير اوقات عملهم التعليمي ، حتى تضمن استمرار البحث العلمي ، وعدم طغيان الواجبات التعليمية عليه .

وكثيراً ما اثرت نوعية البحث العلمي ، كنوع من انواع النشاط البارز والمميز للحياة الجامعية ، وهل هذا البحث هو مجرد حاجة علمية او ما يسمى بالبحث المجرد او البحث الاكاديمي ، او ان البحث يجب ان يهدف الى حل مشاكل تطبيقية تخدم افراض المجتمع .

البحوث في معامل متفرقة في الهيئات والوزارات المختلفة .

وبدراسة المشاكل العلمية ومجالات البحث التي يتعرض لها هؤلاء الباحثون ، يتضح لنا أن هناك عملا كبيرا لا يزال ينتظر القائمين على تنظيم البحث العلمي في بلادنا من حيث حصر المشاكل التطبيقية التي تعوق الصناعة ، أو التي تعوق التنمية الاجتماعية . ثم العمل على إيصال هذه المشاكل إلى المتخصصين . للبحث فيها ، وإيجاد الرابطة القوية بين الباحث ومجال البحث التطبيقي المطلوب .

بدأت بالفعل خطوات لتدعيم جهاز البحث العلمي في الجامعات المصرية ، فبالإضافة إلى تزايد عدد الحاصلين على درجة الدكتوراه في فروع التخصص العلمية المختلفة ، اهتمت الجامعات في السنوات الأخيرة بتدعيم الدراسات العليا بها ، وبزيادة عدد المعيدين زيادة كبيرة ، واعتبارهم - أساسا - طلاب بحث قبل أن يكونوا معاونين في التعليم . إلا أن الأمر يحتاج ، بالإضافة إلى ذلك ، إلى مزيد من الاهتمام بما يحتاجه البحث العلمي من أجهزة ومصعدات ، ومساعدين فنيين ، ومكتبات علمية ، وغير ذلك من مقومات البحث العلمي في العصر الحديث . ولا يمكن تدبير ذلك كله دون تدبير الموارد المالية اللازمة .

ويجب أن نتفق على أن الانفاق على البحث العلمي هو من قبيل الاستثمار الذي يؤديه - بطريق غير مباشر - إلى زيادة الإنتاج ، كما سبق أن أوضحنا وما دام البحث العلمي قد ارتبط بالإنتاج فقد اتفقت الآراء على ضرورة تخصيص نسبة معينة تقدر بواحد في المائة من الدخل القومي ، للانفاق على البحث العلمي .

الدراسات العليا واعداد المتخصصين :

ولا يقتصر النشاط التعليمي للجامعة على طلاب مرحلة الليسانس أو البكالوريوس ، بل يمتد إلى ما بعد هذه المرحلة ، ولا نفالي إذ نقول أن مرحلة الدراسات العليا هي الزم لنمو الجامعة وتقدم البحث العلمي بها ، من المرحلة الأولى ، وبخاصة وأن مرحلة الدراسات العليا تختلف في أسلوبها عن سابقتها ، وتتميز بكثير من الفكر المستقل ، ويظهر عناصر الابتكار في البحث العلمي ، وبخاصة في مراحل الدكتوراه .

وقد استقر الرأي في العصر الحديث على أن البحث العلمي يجب أن يأخذ - بعين الاعتبار - حاجات المجتمع التي تمثل الجامعة ركنا من أهم أركانه ، ولا يمنع ذلك قيام الباحث بما يشبع رغبته ، وينمي فرع تخصصه من البحوث الأكاديمية .

إذ إن البحوث الأكاديمية - مبالوة على أنها استثمار طويل الأجل في مجال البحث العلمي . . تظهر تطبيقاته العملية فيما بعد - فانها عامل أساسي في نمو العلم والمعرفة وفي تكوين الجو العلمي السليم ، داخل الجامعة ، وتربية طلابها وطلاب البحث التربوية العلمية الصحيحة وتمويدهم التفكير المنطقي السليم .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، فإن تدعيم هذه البحوث يشكل الرصيد الأكبر للمكانة العلمية للجامعة .

لذا ، فإن المصلحة العامة تقضي بأن يكون هناك قدر من التنسيق والتوازن بين البحث في العلوم الأساسية (البحوث الأكاديمية) وبين البحوث التطبيقية ، التي تسهم في حل مشكلات محددة . كما يجب أن يكون هناك أيضا قدر من التنسيق بين ما يجري من بحوث في الجامعات ، وبين ما يجري في مراكز البحوث المختصة التي تهتم - أساسا - بالبحوث التطبيقية الخاصة بمشاكل الصناعة .

ومن هذه الزاوية الأخيرة - زاوية البحث العلمي التطبيقي - فإن الجامعات تؤدي دورا هاما في خدمة المجتمع ، فالبحث العلمي يؤدي إلى استخدام الموارد المتاحة ، بصورة أكثر فعالية ، وبالتالي فهو يؤدي إلى زيادة الإنتاج .

ويهدف البحث العلمي - كذلك - إلى ابتكار وسائل جديدة لتطوير الزراعة والصناعة ، وزيادة إنتاجها ، وبالتالي . . إلى نمو اقتصادي يتلوه بالطبيعة نمو اجتماعي .

وإذن ، فإن الاهتمام بالبحث العلمي - في الجامعات ، ومراكز البحوث المتخصصة ، على حد سواء ، والاهتمام بتنسيقه هو من الزم الأمور ، لتنمية المجتمع ، وتقدمه . وهو الزم في المجتمعات النامية التي تسمى جاهدة إلى تضييق الشقة الواسعة بينها وبين المجتمعات المتقدمة .

وفي الجمهورية العربية المتحدة تجري 60 ٪ من البحوث العلمية في الجامعات ، وحوالي 17 ٪ من هذه البحوث في مراكز البحوث المتخصصة ، وتجري باقي

حياة الطالب في الجامعة

ان طالب الجامعة ، من وجهة نظر عامة ، هو المحور الذي يقوم من اجله التعليم الجامعي ، فمن اجله يخطط هذا التعليم وتوضع اسيسه ، وتحدد برامجه واهدافه بغية اعداد الطالب مواطنا صالحا ، قادرا على القيام بعمل محدد في البناء الاقتصادي ، والثقافي ، والفكري للبلاد .

فحياة الطالب في الجامعة اذن ، يجب ان تحظى باهتمام خاص كي تحقق اهداف التعليم الجامعي ...

ويجب ان تبذل الجامعة جهدا ايجابيا في دراسة الصعوبات التي تترسض حياة الطالب ، وبخاصة منذ اول التحاقه بالجامعة .

يجب ان تقوم اجهزة متخصصة في ادارة الجامعة بهذه الدراسات ، وان تتوفر للتصدي لها ، وايجاد الحلول العلمية التي تيسر للطلاب حياتهم ، وتضمن تفرغهم للدرس والتحصيل . ويجب ان يساهم الاساتذة ، وتشكيلات اتحاد الطلاب في هذا الجهد ، فهو واجب اساسي لكلا الطرفين ، وهو محقق لاهداف وجودهما معا .

ان الطالب يدخل الى الجامعة مفتريا ، ربما لأول مرة . وهو يتوقع حياة جديدة تماما ، حياة تختلف عما مارسه في المدرسة الثانوية ، يتوقع في الجامعة نسطا اوفر من الحرية الشخصية ، وعلاقة اوثق مع استاذة ، وقادرا اوفر من حرية التعبير والنقد ، والفكر والمناقشة . وواجب الجامعة ان تشجع الطالب على ممارسة حياته الجديدة ، وان تنمي فيه هذه الصفات ، وان ترعاه اجتماعيا ، ونفسيا ، بجانب رعايته تعليميا وثقافيا .

ان الصعوبات التي تقابل الطالب - عند التحاقه بالجامعة - متعددة الجوانب : منها ما يتعلق بحياته الاجتماعية كصعوبات السكن والاهاشة ، سواء ما يتعلق منها بقدرته المادية على تدبير امور معاشه او قدرته النفسية على التكيف مع هذه الحياة الجديدة ، ومنها ما يتعلق بقدرة الطالب على مقابلة النفقات المختلفة للحياة الجامعية رغم مجانية التعليم الجامعي .

ومنها مصاعب تتعلق بأسلوب التعليم الجامعي نفسه ، وسائله وبرامجه ، وامكانيات نجاحه سواء من حيث لغة الدراسة ان كانت غير اللغة العربية ، او مصاعب الحصول على الكتب الجامعية او الخدمات المكتبية او غير ذلك من الوسائل التعليمية المختلفة .

ويقوم على اكتاف الباحثين - في هذه المرحلة - عبء كبير مما يجري في الجامعات من بحوث تحت اشراف الاساتذة الذين يمثلون الطليعة في البحث العلمي كل في ميدان تخصصه .

ويزداد عدد طلاب الدراسات العليا بالجامعات ، وزيادة مطردة ، عاما بعد عام ، قدر حاجة المجتمع الى متخصصين في فروع العلوم التطبيقية ، وقدر حاجة الجامعات الى مزيد من اعضاء هيئة التدريس لمواجهة التزامات التوسع في التعليم الجامعي ، وفي أنشطة البحث العلمي .

ولا يشترط ان تجري الدراسة العليا كلها داخل الجامعة . بل - في كثير من الاحيان - يقوم تعاون وثيق بين الجامعة وبين المعاهد المتخصصة في هذا المجال ، بل ويحدد - في بعض الاحيان - انشاء مدارس متخصصة للدراسات العليا . تكون مرتبطة بالجامعة وبمراكز البحوث المختلفة .

ولا تقتصر الدراسات الجامعية على طلاب التخصص والبحوث . بل ان من واجب الجامعة ان تنشر العلم والمعرفة في المجتمع حولها ، وان تعد برامج متقدمة للعاملين في المجالات المختلفة - في الصناعة وغيرها - ليستمر اتصال العاملين فيها ، بالتقدم العلمي ، في مجال عملهم .

وسوف نجد كل هذه الأنشطة الجامعية قائمة بنجاح تام في البلاد العريقة في التعليم الجامعي ، والمتقدمة في العلوم والتكنولوجيا . اما في البلاد النامية حيث كان التوسع في التعليم الجامعي سريما بمد مرحلة الاستقلال ، فلا نتصور ان تنمو الدراسات العليا والبحوث بنفس السرعة او القوة التي تنمو بها في الجامعات القديمة ، وهنا يأتي دور التعاون الدولي في هذا المجال : تعاون على نطاق اقليمي ، وتعاون على نطاق دولي في نطاق تنظيمات الامم المتحدة وغيرها .

وقد ظهر في الاموم الاخيرة اتجاه الى تشكيل اتحادات اقليمية وعالمية لجامعات ، نذكر منها . . الاتحاد العالمي للجامعات ، واتحاد الجامعات العربية ، واتحاد الجامعات الافريقية .

ولا يزال الوقت مبكرا للحكم على مدى الفائدة التي يجنيها التعليم الجامعي ، من هذه التنظيمات .

ان استعراض هذه الأمور يوضح مدى الحاجة الى زيادة اهتمام القائمين على شؤون التعليم الجامعي .. بحياة الطلاب ، داخل الجامعة ، وتعاطفهم معهم وتوجيههم الى افضل السبل واسلمها .. نحو حياة جامعية صحيحة .

يجب ان يوجه اتحاد الطلاب الى الاهتمام بحياة الطالب الاجتماعية والثقافية ، والاشترالك مع المسؤولين من أمور الجامعة اشتراكا فعالا في تلمس الحلول للمشاكل اليومية التي تصادف الطلاب ... من طريقة دراسة وبحث هذه المشاكل ، واقتراح الحلول العملية لها ، التي تتفق وظروف البيئة والامكانيات المتاحة للجامعة .

يتضح - اذن - ان حياة الطالب في الجامعة ، تحتاج الى مقومات معينة ، وعلى الاخصر في نواحي الاسكان والاعاشة ، ونواحي التربية الرياضية والثقافية ، ثم الاهتمام - اكبر الاهتمام - بالنواحي التعليمية ، من حيث البرامج والطرق والوسائل وتطويرها تطويرا مستمرا ، لتساير التقدم العالمي في هذا الاتجاه .

فمن ناحية الاسكان والاعاشة ، يجب ان تحظى المدن الجامعية وما تؤديه من خدمات باهمية خاصة . وان تتوسع الجامعات في هذه الخدمات الى اقصى حد ممكن فلا يخفى علينا الفوائد الاجتماعية والثقافية والنفسية المتعددة التي يجنيها الطلاب من الإقامة في المدن الجامعية ، وبخاصة اذا اشرف عليها الاساتذة اشرافا فعالا .

ومما يذكر ان عدد الطلاب الذين تستوعبهم المدن الجامعية في بعض البلاد يبلغ 50 ٪ او اكثر من عدد طلاب الجامعة .

وهناك حاجة ايضا الى زيادة الاهتمام بالحياة الرياضية والثقافية للطلاب ، ويستدعي ذلك فسح الوقت الكافي في جدول الدراسة ، ليزاول كل طالب ما يهينه له استعدادا ، من هذه الأنشطة ، كما يستدعي الامر ان تهتم كل جامعة بتوفير الاماكن والامكانيات التي تسير للطلاب مزاولتها .

ان الرعاية الصحية للطلاب - وقاية وعلاجاً - منصر اساسي توفره الجامعات لطلابها . كما ان التفدية - نظير رسوم رمزية - امر ضروري وحيوي - اثبتت المشاهدة والخبرة اهميته واولويته .

ومع الاهتمام بالاعاشة والاقامة وتوفير الرعاية الصحية ، ورغم مجانية التعليم الجامعي فلا يزال هناك

عدد غير قليل من الطلاب لا تمكنه قدرته المادية من الاستمرار في التعليم الجامعي رغم تفوقه في بعض الاحيان - اذ قد تعجزه رسوم الإقامة القليلة . او ما تتطلبه الكتب والمذكرات من مال ... هؤلاء جميعا يجب ان تدبر لهم الجامعة موردا ماليا - كما هو الحال في كثير من الجامعات يتفق منه للطلاب على هيئة اعمانات او قروض طويلة الاجل - تسدد - دون فوائد بعد انتهاء الدراسة الجامعية ... ولا يؤثر ذلك بطبيعة الحال في الحوافز التي يحصل عليها المتفوقون من الطلاب في شكل جوائز مالية مجزية .

وفي الناحية التعليمية يلزم التنويه بأمريين .. الاول ضرورة توفير امكانيات نجاح التعليم الجامعي . بادئين بالاعداد السليم لهيئة التدريس - كما وكيفا - ثم توفير الوسائل التعليمية الحديثة والامكانيات العملية والمكتبات وغيرها .

والامر الثاني .. المراجعة المستمرة لطرق التدريس وبرامجه وطرق الامتحان ووسائله . مع الاخذ بعين الاعتبار انعكاس هذه الطرق على الطلاب واستجابتهم لها .

ان نجاح العملية التعليمية نفسها مكمل لنجاح رسالة الجامعة ، ومؤثر على نجاح الطالب الذي وفرت له الجامعة المناخ النفسي الذي يمكنه من الاستفادة من امكانياتها العلمية .

ان الاستثمار في التعليم الجامعي والعالي - وهو استثمار للتعليم والتدريس - هو استثمار لزيادة الانتاج والارتفاع بمستواه ، وهو بذلك استثمار للتنمية وتحقيق مستوى افضل للمعيشة ...

ان الاهتمام بحياة الطالب في الجامعة - وعلى هذه الصورة - لهو من اهم العوامل التي تتيح للتعليم الجامعي ان يحقق اهدافه . والاهتمام بحياة الطالب مسؤولية اجهزة الجامعة ، كما هو مسؤولية استاذ الجامعة . ويجب ان يشجع الطلاب - من طريق تشكيلات الاتحادات الطلابية - على ابداء الراي والمناقشة ، والدرس ، والبحث فيما يعرض لهم من مشاكل في حياتهم الجامعية .

ويجب ان تمتص الجامعة ، وينصت الاستاذ الى ما يخلج في هذه النفوس الشابة من مشاعر ، وما يسري بين جنباتها من خلجات . ولا يجب ان نخلط بين الوصاية على أنشطة اتحادات الطلاب وبين العلاقة الجامعية الروحية التي تسود بين الاستاذ والطالب ، فهي اساس الحياة الجامعية والمحقة لكيانها .